أزمة الخطاب الثقافي العربي

الإشكاليات وبوادر الحل

د. المنجي بو سنينة(*)

يشرفني، باسم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أن أتقدم إلى اللجنة العليا للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بجزيل الشكر ووافر التقدير على دعوتنا للمشاركة في فعاليات هذه التظاهرة الثقافية الكبرى.

ولا جدال في أن هذا المهرجان المتميز، وعلى هذه الأرض الطيبة، وفي رحاب المملكة العربية السعودية، وبرعاية خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك عبد الله بن عبد العزيز، وبإشراف مباشر لسمو ولي العهد وزير الدفاع ورئيس الحرس الوطني ورئيس المهرجان الوطني للتراث والثقافة، سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز - لا جدال في أن هذا الإطار المبارك هو أفضل إطار نتطارح فيه هذه القضايا المصيرية للأمة ونسهم معا في مزيد من فهم واقعنا العربي والإسلامي، وكيفية الخروج منه إلى واقع أفضل وأسلم.

وقد شرفتني اللجنة العليا للمهرجان بدعوتي للحديث في محور الخطاب الثقافي ضمن هذه الندوة من ندوات المهرجان التي خصصت لموضوع "أزمة الخطاب العربي" (السياسي، الديني، الثقافي).

في ماهية "الخطاب الثقافي":

وإذا انطلقنا من الصيغة المقترحة لعنوان هذه الندوة: "أزمة الخطاب العربي" (السياسي، الديني، الثقافي)؛ فإننا نجد أنفسنا مباشرة أمام إقرار صريح

(*) المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وقد ألقى معاليه هذه المداخلة ضمن أشغال ندوة أزمة الخطاب العربي (السياسي، الديني، الثقافي) - المهرجان الوطني الواحد والعشرون للتراث والثقافة (الرياض، فبراير، ٢٠٠٦).

بوجود "أزمة" على مستوى الخطاب العربى المعاصر تشمل مجالاته المختلفة، السياسية والدينية والثقافية. وهى – كما هو معلوم – مجالات متداخلة مترابطة، يؤثر بعضها فى بعضها الآخر، على المستوى العام، وأحيانا على مستوى التفاصيل والجزئيات الدقيقة. على أننى، وبحكم المنهجية المتوخاة فى الندوة، سأركز فى هذه المداخلة على الخطاب الثقافى، آملا أن تتكامل رؤيتى فى هذا الصدد مع رؤى المتدخلين الآخرين فى هذه الندوة بخصوص الخطاب السياسى والخطاب الدينى.

ولتداخل هذه الأنواع الثلاثة من الخطاب؛ فلا بدّ لى، قبل الخوض فى أزمة "الخطاب الثقافى"، من تعريف ماهية هذا "الخطاب الثقافى" تعريفا إجماليا، قد يسهم فى "رسم الحدود"، ولو كان فيها شىء من الاصطناع، بين هذا الخطاب من ناحية، والخطابين السياسى والدينى من ناحية أخرى.

فالمقصود بـ "الخطاب الثقافى العربى"، كما هو متداول اليوم فى الساحات الثقافية والفكرية والإعلامية فى الوطن العربى، هو ما يطرح – كتابة أو شفاهة – من مقولات ونظريات وآراء وتصورات ومواقف تتعلق بتحديد ماهية الثقافة التى ينتمى إليها الفضاء العربى (بالمفهوم الواسع للثقافة بدون شك)، ومواقف المنتمين إلى هذا الفضاء من قضايا عصرهم فى جوانبها الفكرية والثقافية على وجه الخصوص، لكن بدون استثناء الجوانب المادية والاقتصادية، وكذلك مواقفهم من الآخر المحيط بهم بوصفه كيانا ثقافيا وحضاريا مختلفا.

ويفهم من هذا التعريف الأولى أن "الخطاب الثقافى العربى" هو، فى جانب منه، خطاب البحث عن الذات والكيان، وفى جانبه الآخر، خطاب التموقع بالنسبة إلى الآخر، وبالنسبة إلى العالم المحيط.

ولاشك فى أن هذا التعريف المقتضب لمفهوم "الخطاب الثقافى" بحاجة إلى إيضاح أكبر، حتى نتكلم جميعا اللغة نفسها، ونفهم الفهم نفسه عندما نتحدث عن هذا الخطاب. ولعل من فوائد هذه الندوة أن تكون مناسبة ومنطلقا لمناقشة هذا المفهوم، وصولا إلى فهم مشترك بين الجميع.

هل نحن أمام خطاب أم خطابات؟!

أولا - خطاب أم خطابات؟

انطلاقا من هذا التعريف، وما تضمنه من احتمال تعدد الآراء والمواقف حول تصور الذات والعلاقة بالآخر وبالعالم المحيط؛ فإن استعمال صيغة المفرد عند تناول موضوع "الخطاب الثقافى" لا يعكس واقع هذه التعددية وحقيقة الاختلاف فى النظرة والتحليل، بل لعل هذه الصيغة لا تصلح إلا لتكون عنوانا عاما لنوع من الخطاب يتناول الموضوع نفسه.

لذلك قد يكون من الأجدر، ونحن نتناول بالقراءة مختلف تجليات هذا الخطاب، أن نتحدث عن "خطابات" فى صيغة الجمع، وهى صيغة توحى بداهة بالتعدد والتنوع، بل بالاختلاف والتناقض.

ومن هذا المنطلق سنستعرض فيما يلى نماذج مما بدا لنا سائدا فى الساحة العربية من "الخطابات الثقافية"، متعمدين تقديمها فى شكل ثنائيات متقابلة؛ لنتمكن، من خلال هذه الصيغة، من إظهار بعض أوجه الاختلاف بين أنواع متناقضة من الخطاب الثقافى، وليتسنى لنا، من ناحية أخرى، طرح بعض الإشكاليات المتصلة بطبيعة هذا الخطاب الخصوصى أو ذاك.

الخطاب الأول الذى يكرمه بعض المفكرين:

١/١ خطاب "الأصالة والتراث" مقابل خطاب "المعاصرة والحداثة":

لعل أهم ثنائية ميزت "الخطاب الثقافى العربى" عموما فى عصرنا الحاضر هى الثنائية القائمة على التقابل التالى الذى جعلت له تسميات عدة:

- الأصالة والتراث مقابل المعاصرة والحداثة.
- الهوية العربية الإسلامية مقابل الحضارة الغربية.
- التقدم مقابل التخلف.

وتعود هذه الثنائيات بمختلف مسمياتها، إلى عهود قديمة سابقة، يرجعها أغلب الباحثين والمفكرين العرب إلى أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر للميلاد. وهى المرحلة التى برز فيها ما يسمى "صدمة الحداثة"، بمناسبة الاحتكاك العنيف والاتصال المباشر والصدامى بين العالم العربى والإسلامى من ناحية، والعالم الغربى المسيحى من ناحية أخرى، وبالتدقيق منذ حملة نابليون بونابارت على مصر. فقد أظهرت هذه الحملة البون الشاسع بين الغرب الزاحف بقواه المادية والعسكرية الغازية، والشرق وما يعانيه من تخلف وركود فى جميع مجالات الحياة، وأحدثت رجة لدى المثقفين العرب والمسلمين، تلاها انقسام فى المواقف من هذه الحضارة الجديدة الوافدة عليهم.

وقد نتج عن الجدل الدائر حول هذه القضية بروز عدة تيارات فكرية، عبر عنها الخطاب العربى المعاصر بالتوجهات الآتية:

١ - تيار يرفض الحداثة وما يتعلق بها، ويدعو إلى التمسك بثقافة الأمة وما تضمنه ماضيها الزاهر من تصورات وقيم.

٢ - تيار يتبنى الحداثة بشكل كامل، ويدعو إلى التخلص من الماضى والقطيعة مع تراثنا، بدون فرز أو تمييز، والأخذ بكل ما جاءت به الحداثة الغربية من مقولات وقيم وإنجازات.

٣ - تيار وسطى، يحاول أن يعتمد الأسلوب التوفيقى بالدعوة إلى المحافظة على ما هو إيجابى فى تراثنا العربى الإسلامى، وفى الوقت نفسه، إلى العمل على تكييف المعاصرة لأحوال ثقافتنا ومجتمعاتنا، والأخذ بما هو مفيد فى الحضارة الغربية الحديثة.

الخطاب الثانى الذى برز خلال السنوات الأخيرة لدى بعض مفكرينا:

٢/١ "خطاب التقوقع" مقابل "خطاب التنوع الثقافى":

على غرار ما أحدثته "صدمة الحداثة" فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وانتصاب الاستعمار الغربى فى الوطن العربى خلال القرن التاسع عشر وجزء كبير من القرن العشرين، من ردود فعل على مستوى "الخطاب الثقافى"، تعلقت، كما رأينا، بثنائية الأصالة والمعاصرة؛ فإن العقد الأخير من القرن الماضى والسنوات الأولى من هذه الألفية الثالثة شهدت بروز ظواهر جديدة قادمة كذلك من الغرب، كان لها تأثيرها المباشر فى ظهور نوع جديد من "الخطاب الثقافى" فى الوطن العربى.

ومن أبرز هذه الظواهر العولمة وما حملته فى طياتها من سعى لتنميط الثقافة و"تعليب" نتاجها وعولمة الذوق العام.

وقد جاء رد "الخطاب الثقافى العربى" سريعا على هذه المحاولات الساعية لطمس الخصوصيات والهويات، ومن بينها هويتنا العربية الإسلامية. ومما يلاحظ فى هذا الرد بصفة عامة، أنه تناول ظاهرة العولمة بأسلوب تحليلى نقدى، وهو جانب إيجابى يبرز أهمية التعامل العقلانى مع مثل هذه الظواهر. وقد أبرز "الخطاب الثقافى العربى" فى هذا الصدد أن خطورة ظاهرة العولمة، والجانب السلبى المطلق فيها، هو محاولة الثقافة الغربية عموما الهيمنة على الثقافات الأخرى، ورفض التعدد والتنوع الثقافى، وعدم الاعتراف بالآخر، أيا كان هذا الآخر.

والجدير بالملاحظة أن هذه الهيمنة الثقافية أنتجت، قبل الخطاب العربى، خطابا غربيا ذا طابع مهيمن استعلائى يُذكّر بخطاب "المركزية الأوربية" – إن لم نقل بالخطاب الاستعمارى– الذى ساد خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وقد وجه هذا الخطاب الثقافى

الغربى المهيمن سهامه خاصة إلى أمتنا وهويتنا العربية الإسلامية، لمحاولة تهميشها، وتزييف قيمها وتاريخها ودورها الإنسانى عبر العصور، مستغلا كل الوسائل الإعلامية والثقافية والتكنولوجية الحديثة المتاحة له لنشر توجهه المهيمن.

لذلك فلا غرابة أن يؤدى هذا التوجه الغربى إلى مزيد من سيطرة الانفعال والنزعة الدفاعية والعدائية على شريحة من الخطاب العربى الثقافى المعاصر، ومن ثم إلى مزيد من التوتر بين العالمين العربى والإسلامى من ناحية، والعالم الغربى من ناحية أخرى.

على أن نزعة "العولمة الثقافية" أفرزت كذلك فى الوطن العربى "خطابا ثقافيا" من نوع آخر، يدافع، فى نطاق حركة عالمية شاملة، وبأسلوب رصين، عن التنوع الثقافى والخصوصيات الثقافية.

واسمحوا لى أن أشير فى هذا الصدد إلى أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أحد المسهمين فى هذا الخطاب عربيا وعالميا، بدعمها المطلق للاتفاقيات الدولية المبرمة بشأن الدفاع عن التنوع الثقافى (اليونسكو، الفضاءات اللغوية الثلاثة....) وبأدبياتها ونشاطاتها المتعددة فى هذا السياق.

الخطاب الثالث الذى نعيشه اليوم:

٣/١ "خطاب التطرف" مقابل "خطاب الحوار":

بالتوازى مع العولمة الثقافية الزاحفة، وجد الوطن العربى نفسه فى بدايات هذا القرن، إزاء ظاهرة أخرى تمثلت فى "الخطاب الصدامى الغربى".

ونعنى بهذا التعبير الخطاب الغربى الذى يدعو إلى صدام الثقافات والحضارات، خاصة صدام الثقافة الغربية مع الثقافة العربية والإسلامية.

وقد استغل أصحاب هذا الخطاب كل الوسائل والأساليب الممكنة لشن حملة إعلامية شرسة ضد حضارتنا وضد ديننا الإسلامى الحنيف، وأخيرا وليس آخرا – كما يبدو – ضد رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أسهمت هذه الحملات فى تواتر بيانات ونصوص فى الوطن العربى خلال السنوات الأخيرة فى خطاب يمكن أن نطلق عليه "الخطاب المتشدد" أو "الخطاب المتطرف" أو "الخطاب الإرهابى" حسب عبارة البعض. ولا أرانى فى حاجة إلى التذكير فى هذه المناسبة بمضامين هذا الخطاب وما ينشره من تصورات ومواقف باسم الإسلام، وديننا الحنيف منها براء.

وإن من المفارقات اللافتة للنظر أن الخطاب الغربى المعادى لهويتنا الحضارية استغل هذا الخطاب العربى الإسلامى المتطرف ليظهر ثقافتنا وحضارتنا وديننا فى مظهر سلبى.

لكن هذا لا ينبغى أن يخفى علينا وجود رد عربى من نوع آخر على مقولات الصدام بين الحضارات والحروب بين الأديان، وهو رد رصين يدعو إلى الحوار بين الثقافات والحضارات ومزيد من التعارف بين الشعوب والاعتراف بخصوصياتها والبحث عن القواسم المشتركة بين الإنسانية تجاوزا للاختلافات والخلافات.

وتجدر الملاحظة، هنا أيضا، أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد اندرجت منذ أواخر القرن الماضى فى هذا الخطاب بوضع استراتيـــجية شاملة للحوار بين الثقافة العربية الإسلامية وثقافات العالم تعتمد مبادئ الندية والتكافؤ فى الحوار والاحترام المتبادل وقبول الآخر بخصوصياته واختلافاته. وقد نفذت المنظمة، فى إطار هذه الاستراتيـــجية، عددا من ندوات الحوار مع فضاءات ثقافية مختلفة فى العالم (أوربا، الفضاء الإيبيروأمريكى، أفريقيا، الصين، ألمانيا، الفضاء اللاتينى، روسيا...)، كما أصدرت كتبا

ووثائق عدة بهذا الصدد، أثرت أدبيات "الخطاب الثقافى العربى" فى هذا الجانب المتعلق بعلاقة الإنسان العربى بالآخر.

ثانيا- أزمة أم أزمات؟

الآن، وقد اتضح لنا بعض من تجليات "الخطاب الثقافى العربى المعاصر"، نعود إلى الإشكالية المطروحة علينا المتصلة بأزمة هذا الخطاب. وهذا يعنى أننا نقرّ، مع منظمى هذه الندوة، بوجود أزمة، لعلّ من المفيد رسم حدودها وتحديد أهم مظاهرها، قبل اقتراح بعض من سبل التصدى لها، فتحا للنقاش وتبادلا للرأى مع حضراتكم.

وكما أن "الخطاب الثقافى" خطابات؛ فإن أزمة هذا الخطاب لا يمكن أن تكون إلا أزمات، فى صيغة الجمع كذلك، على أساس أن كل نوع من أنواع الخطاب الثقافى قد أسفر عن سلبيات معينة، فضلا عن المشترك بينها جميعا أو بين بعضها فحسب.

١/٢ "سجن الثنائيات"... ومراوحة المكان:

إن المتأمل فى "الخطاب الثقافى العربى" على امتداد قرنين ونيف من الزمن يلاحظ أن جانبا كبيرا منه لم يخرج عن دائرة اتخاذ المواقف من الحضارة الغربية وتحديد أسلوب التعامل معها، رفضا قاطعا أو قبولا غير مشروط أو حلا توفيقيا وسطا.

وقد تكرر طرح هذه الإشكالية طوال هذا الوقت فى قالب ثنائيات اختلفت صيغها، كما رأينا، لكن الجوهر واحد، وهو علاقتنا بالغرب، وماذا نأخذ منه ولا نأخذ. وهكذا ظل النقاش حول هذا الموضوع، برغم تغيّر الإطار التاريخى والتسميات، يراوح مكانه بسبب تمسك كل طرف بموقفه، وكذلك

ربما بسبب طرح خاطئ لقضية التقدم والتخلف بربطها فى كل الأحوال بعلاقتنا بالحضارة الغربية.

ومهما يكن السبب فإن "الخطاب الثقافى العربى" بقى سجين هذا الطرح و"سجين الثنائيات" الملازمة له، ليدور فى حلقة مفرغة لعلها من أهم عوارض أزمته اليوم.

٢/٢ الخطاب الماضوى والخطاب الحداثى: وجهان لتقليد واحد

إن "الخطاب الثقافى العربى" بشقيه الماضوى والحداثى، لا يعدو، فى كثير من الأحيان، أن يكون خطابا مقلدا، الأول باجتراره، باسم التراث وأمجاد الماضى، مرجعيات وأفكارا تجاوزها الزمن، وليس فيها ما يبرر التقديس: والآخر بنقله، بدون نقد أو تكييف مع واقعنا العربى الإسلامى، مقولات لا تتماشى وحضارتنا، بل تتعارض معها، هذا إذا لم تدع إلى إلغاء قيمنا، وتبنى قيم غربية عنا تماما ومهددة لهويتنا العربية الإسلامية.

وتتمثل أزمة الخطاب الثقافى، فى هذه الحال وتلك، فى أنه يقع خارج التاريخ، بوصفه لا يأخذ فى الحسبان واقع الأمة فى اللحظة الراهنة. لذلك لا يجد الخطاب المفرط فى الماضوية أو فى الحداثة صدى واسعا فى مجتمعاتنا، هذا فضلا عن عجزه عن التطور والتقدم؛ بسبب عدم القدرة على تكييف الأفكار التى يحملها مع مطالب العصر (بالنسبة إلى الخطاب الماضوى)، أو مع الواقع الثقافى والدينى والقيمى للمجتمع (بالنسبة إلى الخطاب الحداثى).

٣/٢ "التيار الثالث" بين التوفيق و"التلفيق":

أما أزمة "الخطاب الثقافى" للتيار الثالث الذى يتوسط تيارى الأصالة والمعاصرة أو الماضوية والحداثة، فتتلخص عموما فى الصعوبات التى

طرحتها وتطرحها إلى اليوم عملية "التوفيق" بين هذين التيارين، حتى أن البعض سماها "تلفيقا".

ولعل السؤال النقدى الكبير الموجه عادة إلى هذا التيار هو: كيف يمكن أن نستفيد من الحداثة المادية الغربية بدون الأخذ بالقيم والتصورات والاختيارات الفكرية والثقافية التى اعتمدتها هذه الحداثة؟

وقد أدى هذا الإشكال ببعض المفكرين إلى التفريق بين مفهومى "الحداثة" و"التحديث"، وبين مفهومى "التغريب" و"التحديث"، على أساس أن مفهومى "الحداثة" و"التغريب" يدلان على الخلفية الثقافية للحضارة الغربية الحديثة، وما تتضمنه من مبادئ وقيم وتصورات للإنسان وللدين وللسلطة وللمجتمع، أما مفهوم "التحديث" فهو مفهوم يعنى المكتسبات المادية والتقنية وكل اكتشافات هذه الحضارة.

واعتمادا على هذا التفريق بين المجالين الثقافى من جهة والمادى التقنى من جهة أخرى؛ فإن اقتباس العرب والمسلمين لإنتاجات الحداثة ومكتسباتها، واستعمالهم إياها فى حياتهم اليومية بدون الأخذ بخلفياتها الثقافية، يرى فيه بعض المفكرين العرب "حداثة سطحية شكلية".

ويذهب كثير من المفكرين إلى القول بأن الأزمة العميقة التى يعيشها مجتمعنا العربى الإسلامى حاليا، والتى ما فتئ الخطاب العربى المعاصر يتناول ظواهرها المختلفة بالتحليل، تعود فى جانب كبير منها إلى هذا الانفصام القائم عندنا بين السعى الحثيث إلى الاستفادة من مكتسبات الحداثة فى جميع المجالات، والحرص – فى الوقت نفسه – على رفض خلفياتها الثقافية، أو على الأقل التعامل مع هذه الخلفيات بصورة شكلية.

٤/٢ ردود دفاعية... ردود انفعالية:

لعل من السمات المميزة "للخطاب الثقافى العربى" عموما أنه تشكل فى أغلب الحالات على أرضية ردود أفعال على مؤثرات ومثيرات خارجية، من

حملة نابليون على مصر إلى الهجمة الاستعمارية على الوطن العربى، وصولا إلى الأحداث المتسارعة التى ازدحمت بها منطقتنا فى نهاية القرن الماضى وبدايات القرن الحالى، هذا فضلا عن التيارات العالمية، السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية والتقانية التى تمسنا، كما تمس العالم كله دون استثناء.

والواضح أننا فى كل هذه الحالات، لسنا أصحاب مبادرة، بل نحن مضطرون، فى كل مرة، وعلى مستوى "الخطاب الثقافى" دائما، إلى ردود فعل دفاعية أو تبريرية تتلو الأحداث ولا تسبقها.

ومما يزيد فى تعقيد هذا الجانب من الأزمة، هو أن ردود الفعل هذه كثيرا ما تكون ردودا انفعالية، بل متشنجة أحيانا، كما رأينا آنفا فى حال "الخطاب المتقوقع" و"الخطاب المتطرف"، بحيث تفتقر هذه الردود إلى العقلانية والهدوء والتبصر، وهى من الصفات الضرورية لخطاب ثقافى قادر على النفاذ والتأثير فى الآخر.

٢/٥ من الأزمة إلى "الأزموية":

إن أزمة الخطاب العربى، باستمرارها وتواترها، أدت ببعض المفكرين العرب إلى استعمال عبارة "الأزمة المفتوحة".

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الأزمة لم تبق مفتوحة فى مجال طرح القضايا الفكرية والثقافية القائمة فحسب، بل أحيانا حتى فى أسلوب التناول والتحليل.

فالمتابع لمجموع المؤلفات والأبحاث المتعلقة بأزمة "الخطاب الثقافى العربى"، يلاحظ بكل وضوح، ما يسود هذا الخطاب من تكرار واجترار، وما يغلب عليه من غموض وضبابية.

ولاشك فى أن هذه الظاهرة قد زادت من تفاقم أزمة الخطاب العربى المعاصر؛ لأن أصحاب هذا الخطاب أصبحوا، هم أنفسهم، جزءا من هذه الأزمة، لا يستطيعون التحرك والتفكير إلا داخلها وضمن آلياتها.

ومن المعلوم بداهة أن كل من يكون عنصرا من عناصر أزمة ما، لا يستطيع حلها وتجاوزها وتفكيكها إلا إذا كانت له القدرة على الابتعاد عنها، ومن ثم تناولها بأسلوب نقدى خارجى، انطلاقا من الداخل، وهنا مكمن الصعوبة.

ومما يؤسف له أن أغلب الباحثين العرب يعانون من هذا الخلل المنهجى؛ وهو ما جعل حديثهم عن أزمة الخطاب الثقافى العربى جزءا من هذه الأزمة نفسها، على النحو الذى أدى ببعض علماء الاجتماع العرب إلى إطلاق مفهوم "الأزموية" على هذه الظاهرة.

ولئن كان الأمر على هذه الصورة لدى الأغلبية الغالبة؛ إننا لابد أن نسجل الدور الذى تقوم به نخبة متميزة من مفكرينا المعاصرين لتكسير هذا الطوق "الأزموى"، وبذل الجهد الفكرى والعقلانى اللازم للقيام بتفكيك هيكلى لعناصر أزمة الخطاب العربى من الداخل، ومحاولة التوصل إلى حل يخرجنا من الانغلاق الخطير، الفكرى والثقافى، الذى نعانيه، والذى لا يخفى على أحد مدى انعكاسه الخطير على الواقع العربى والإسلامى فى مختلف مجالاته ومستوياته.

٦/٢ أزمة خطاب أم أزمة ثقافة وفكر؟

لقد تحدثنا حتى الآن عن أزمة "الخطاب الثقافى العربى"، لكننا فى الواقع ما كنا نتحدث إلا عن أزمة الفكر والثقافة فى الوطن العربى. فالخطاب الثقافى العربى هو، ككل خطاب، يمثل مرآة وصورة عاكسة للفكر العربى

وللمجتمع العربى النابع منه والمرتبط به والمتفاعل مع حركيته وصيرورته الدائمة.

ولهذا فإن أزمة الخطاب العربى تعكس بالضرورة المأزق الذى يعيشه الفكر ويعانيه المجتمع العربى الإسلامى منذ عهود.

ثالثا - ما العمل؟

إن السؤال الذى يفرض نفسه علينا جميعا، مؤسسات ثقافية رسمية ومنظمات مجتمعية ونخبا عربية، هو: ما العمل إزاء هذه الأزمة المتزايدة التى تتفاعل فيها مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية متعددة الأطراف والمجالات؟ وكيف يمكن أن نتوصل إلى تعامل إيجابى مع هذه العوامل للخروج بالخطاب العربى المعاصر من أزمته؟

إن تاريخ أمتنا وما تزخر به من كفاءات ونخب فى جميع الميادين، وإن القيم الإنسانية السمحة التى أفرزتها ثقافتنا العربية الإسلامية، والدور الذى ينبغى أن تقوم به أمتنا فى تطوير الحضارة الإنسانية، كما فعلته بالأمس، إن كل هذا يدعونا للمبادرة بالعمل على ترسيخ خطاب ثقافى متفتح متجدد متوازن مبادر، وذلك لمواجهة خطاب الانغلاق والتقوقع والتطرف.

وتأسيسا لمثل هذا الخطاب أو دعما لبوادره، لابد لنا، فى الوطن العربى، من تكثيف اللقاءات الفكرية بين المثقفين، وإقامة المنابر المتيحة للحوار فى هذا الشأن. وقد بادرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى مثل ذلك بعقد ندوة فى أبو ظبى (٤-٧ يناير ٢٠٠٦) كان هدفها صياغة موقف عربى إسلامى للحوار مع الآخر، وكان من نتائجها ما يمكن أن يفيدنا اليوم فى هذه الندوة على مستوى تحديد بعض سمات الخطاب الثقافى العربى الذى نتطلع إليه. ومن هذه السمات:

١ – ضرورة معرفة الذات وممارسة النقد الذاتى للواقع الاقتصادى والثقافى الذى يعيشه العرب اليوم، وقد أوصلهم إلى ما هم عليه الآن من الوهن والتفكك على المستوى الإقليمى، وما يستتبع ذلك من انعدام الفعل على المستوى الدولى. فلا يمكن للعربى أو المسلم، والحال هذه، أن يقدم نفسه فى حواره مع الآخر فى صورة الذات المكتملة الخالية من العيوب والسلبيات. فلابد من القيام بنقد إيجابى عميق للثقافة العربية الإسلامية السائدة اليوم، والعودة إلى التراث العربى الإسلامى، وإعادة قراءته قراءة نقدية واعية، للبحث فيه عن الذرى المشرقة المتمثلة فى العقلانية والانفتاح والتسامح، وتوظيفها لبناء مشروع حضارى جديد (وخطاب ثقافى جديد)، ولإقامة حوار متكافئ بناء مع الآخر. وصدق من قال إن من لا يعقل حاضره لا يحسن الإفادة من ماضيه ولا الإعداد لمستقبله.

وهذا يقتضى أن يعود المثقفون العرب والمسلمون إلى الغوص فى تراثهم وإعادة قراءته بنظرة نقدية واعية، تفيد من مناهج العلم الحديث وأدواته ومقولاته، وتستوعب تطوراته؛ لإعادة اكتشاف ثقافتهم العربية الإسلامية التى أسهمت فى توليد ثقافة الغرب الحديثة وإنجازاته العلمية الكبيرة. كما يتطلب العودة إلى تلك المعالم المضيئة فى ثقافتنا العربية والإسلامية، لكى ندرك أننا جزء لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية الحديثة والمعاصرة التى أفاد منها عدد من شعوب العالم أكثر مما أفاد منها العرب والمسلمون أنفسهم. إن المثقفين العرب والمسلمين مدعوون للحوار الإيجابى مع الروح العلمية والعقلانية فى ثقافتهم، بوصف ذلك شرطا لا غنى عنه لحوار إيجابى من موقع الندية مع الثقافات الكونية المعاصرة.

٢– استيعاب نقدى عميق لثقافة الآخرين من مصادرها الأصلية. فالحوار مع الآخر يتطلب الاطلاع بصورة عميقة وعقلانية على حاضره بمختلف

وجوهه، وعلى تاريخه وتراثه... ، (ومن هنا تأتى أهمية الاعتناء بدعم قطاع الترجمة، كما بادرت بذلك مؤخرا عدة دول ومؤسسات عربية).

٣ – التخلص من الشعور بالدونية، ومركب النقص، وعقدة الذنب، وذهنية الاعتذار، والدفاع المستمر عن الذات.

٤ – الاهتمام بمجال الاستشراف فى جميع الميادين – لأن من لا يحسن الحساب لن يقرأ له مستقبلا حسابا – حتى لا تباغتنا الأحداث كما باغتتنا فى الماضى:

– الثورات الصناعية المتتالية وتخلفنا عنها.

– الاستعمار وانتصابه بالعنف على أرضينا.

– احتلال إسرائيل لأراضينا الفلسطينية.

– المؤامرات المختلفة ضد كياننا وثقافتنا وهويتنا ودينا.

كما باغتتنا خلال العقود الأخيرة الثورات التكنولوجية الهائلة والمتتالية، وتخلفنا عنها وأصبحنا نستهلك نتاجاتها ولا نصنع منها شيئا.

كلمة ختامية:

إن حرص المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على إقامة مثل هذه المنتديات، ونشر الوثائق المرجعية الصادرة عنها، إنما يندرج ضمن حرصها على المساهمة فى ترشيد الخطاب العربى المعاصر، وتجنيبه الانزلاق فى مجالات التطرف والانفعال وردود الفعل، ودفعه إلى مزيد من العقلانية والانفتاح والتعامل الإيجابى مع الآخر.

وإن تداخل عوامل هذه الأزمة يفرض علينا جميعا – كل من موقعه – أن تتكاتف جهودنا – مؤسسات ومجموعات وأفرادا – للإسهام فى تفكيك

عناصر الأزمة، السياسى منها والدينى والثقافى، بدون أن ننسى أيضا جوانبها الأخرى، التربوية والاقتصادية والتنموية الشاملة، وإلى جانب البعد الوضعى لأوضاعنا الثنائية الراهنة، لابد أن نطور البعد الاستشرافى فى النظر إلى البعد الديناميكى المتعلق بتجديد الخطاب، بما يتماشى وطموحاتنا ورؤانا، ونستجيب لمنطلق العصر وتطلعات شبابنا.

كما بات من المؤكد لمقاومة رداءة أوضاعنا أن نضع برامج طموحة لإنتاج المعرفة إسهاما منا إسهاما فعالا بما اصطلح على تسميته اليوم "مجتمع المعرفة" و"مجتمع التعلم من الحياة". كل هذا يتطلب جعل التطوير المستمر لمناهجنا التربوية خيارا استراتيجيا، فتربية اليوم تؤسس لثقافة الغد. وإن المراجعة الشاملة لمنظوماتنا التربوية تتطلب عملا مضنيا لتأهيل هذه المنظومات وجعلها تستوعب مكاسب التكنولوجيات والثقافات الحديثة للمعلومات والاتصال وتعتمد المقاييس والمعايير العالمية مع مجالات الجودة والابتكار المتواصل وروح المبادرة والإبداع اللذين تتطلبهما عملية الإصلاح هذه.

كما يتحتم علينا اليوم تكوين شبابنا على قيم الوسطية والاعتدال والتسامح، ونبذ العنف بكل أشكاله (وهذا ما تقوم به الآن وزارات التربية والتعليم بدول الخليج فيما يتعلق بتطوير مناهج التربية الإسلامية)، وكذلك على النقدية الضرورية لكل تقدم نرومه وكل إسهام فعلى على إنتاج المعرفة وكذلك إنتاج ما نستخدم من معدات فى كل المجالات الثنائية والفكرية، وجلها مع الأسف الشديد مستورد.

ولا يمكن أن يكتب لكل هذه الإصلاحات النجاح والبقاء إلا إذا عملنا على تركيزها فى محيط عربى متضامن يتوق إلى الوحدة والاندماج، وواع بضرورة ترابط مصالحنا فى مسيرة وحدوية قوية، تضمن لنا البقاء ولهويتنا

الترسخ والثبات والإشعاع والانتشار. فلا مناص من تضامن عربى قوى لرفع تحديات عصرنا.

إن مسئولياتنا فى هذا الصدد مشتركة، وهى فى هذه الظروف الدولية الخطيرة، مسئولية جسيمة، علينا تحملها... وهذا قَدَرُنا. والله الموفق.

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية